مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

الجفاف في المتخيل اليهودي بمغرب العصر الوسيط

د. حميد اجميلي
أستاذ التعليم العالي
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

عبد الحق بعلا
باحث سلك الدكتوراه تاريخ العصر وسيط
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

يهدف هذا المقال إلى تتبع جانب من التاريخ الذهني ليهود مغرب العصر الوسيط، والمرتبط بكارثة الجفاف التي تُعَدّ من أعظم الرزايا التي اكتوى بنارها اليهود المغاربة خلال العصر الوسيط، خاصةً وأنه كان ينجم عنه الكثير من التحولات الطبيعية والاقتصادية والرجّات الذهنية. ولأنها تحولات كانت تتم بشكل فجائي وتتعدى إمكانيات وقدرات يهود المرحلة على مجابهتها ومعاركتها بطرائق علمية وبآليات مادية، فقد ابتدعوا طرائقًا وممارسات مستمدة من نماذج أصلية بمرجعيات ثقافية، دينية على وجه التحديد، بهدف الهروب من ذلك الواقع أو للتخفيف من آثاره، وهو ما أفرز ألوانًا من التفسيرات الغيبية والمواقف الذهنية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الجفاف أضحى أمرًا مألوفًا عند المغاربة، إلا أن الآليات والتقنيات التي تم التوصل إليها زمن الدراسة لم تكن كفيلة بمواجهته بطرائق علمية، وهو ما كان يندر بأيام صعبة، حيث يصبح الجوع وشبح الموت أقرب إلى الإنسان من أي وقت آخر، لذلك، ينتصب المتخيل اليهودي مخترقًا المألوف ومتجاوزًا حدود الذهن باحثًا عن الخلاص.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٣ ديسمبر ٢٠٢٤
تـاريخ قبــول النشــر: ٠٥ يناير ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

التاريخ الذهني؛ اليهود؛ العصر الوسيط؛ الاستمطار؛ المهدي المنتظر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.341449.1190

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الحق بعلا، حميد اجميلي. "الجفاف في المتخيل اليهودي بمغرب العصر الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد التاسع والستون؛ يونيو ٢٠٢٥. ص ٦٠ – ٦٧.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Corresponding author: baallaabdelhak2@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّارِيخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةٌ

أدت التحولات الطبيعية والاقتصادية التي شهدها المغرب خلال العصر الوسيط إلى رجّات ذهنية في صفوف يهود المغرب خلال العصر الوسيط. وقد كانت تلك التحولات تتم بشكل فجائي وتتعدى إمكانيات وقدرات إنسان المرحلة على مجابهتها ومعاركتها بطرائق علمية وبآليات مادية، لذلك ابتدع طرائقًا وممارسات مستمدة من نماذج أصلية بمرجعيات ثقافية، دينية على وجه التحديد، بهدف الهروب من ذلك الواقع أو للتخفيف من آثاره، وهو ما أفرز ألوانًا من التفسيرات الغيبية والمواقف الذهنية. وقد أشار الحسين بولقطيب إلى أن المؤرخين التقليديين نادرًا ما يهتمون بقضية المتخيل، لكونه يدخل ضمن اهتمامات دارسي الآداب والعقليات، لكن التطور الذي شهدته مناهج علم التاريخ وانفتاحه على علوم أخرى، جعلت المؤرخ المعاصر على وعي تام بأهمية الإحاطة بمختلف أبعاد الظواهر التاريخية والعوامل الفاعلة فيها.[١]

إن التغيرات التي تطرأ على المناخ، يتبعها تغيرًا على مستوى الاقتصاد، و"تغيرات في صحة الإنسان وتقلب ذهنه"[٢]. فحالة الساكنة أثناء التساقطات والخصوبة ليست هي حالتها زمن الجفاف والقحوط وما يتبعها من مجاعات وأوبئة. فتلك الأزمات التي تصيب الإنسان في قوته اليومي وتهدد بذلك وجوده، تجعله يتوسل العديد من الممارسات، التي وإن بدت على أنها بعيدة عن المنطق والتحليل العلميين إلا أنه يجد فيها بلسما لشقائه ووسيلة للتشبث بتلابيب الحياة التي كشرت عن أنيابها في وجه ساعة الأزمة. هذه الأخيرة أسهمت في تخصيب مخياله وتمثلاته وأفرزت لديه العديد من الأشكال المتخيلة.

أولاً: ذهنيات يهود المغرب زمن الجفاف (التفسير وسبل المواجهة)

حاول يهود المغرب إعطاء تفسيرات للآفات التي كانت تهدد أقواتهم، خاصة الجفاف، وربطوها بكثرة المعاصي، لذلك توسلوا العديد من الطقوس الدينية، كإقامة صلواتهم الاستمطارية، حيث كانوا ينفردون بيوم أو يخرجون مع باقي السكان من المسلمين[٣]، مع تلاوة النصوص المقدسة والقيام بالعديد من الابتهالات[٤]، ناهيك عن زيارة الربيين والصلحاء وهم حفاة[٥].

إن إنسان زمن الكوارث الطبيعية يصبح متقبلا لكل التعليلات وأفكار الخلاص العارية من المنطق، حيث يصبح "ميكانيزم"[٦] التفكير عنده خرافيا بامتياز. فغياب الأمن، بأشكاله المختلفة، كان يعزز حضور الخرافة وانتعاشها وسط العامة التي تنعدم لديها الثقة في المستقبل[٧]. فقد شاع عند يهود المغرب، زمن الانتكاسات والكوارث الطبيعية التردد على زيارة قبور الأولياء، فيظهر هؤلاء بمثابة "منقذين لهم ولأحلامهم"[٨]. فقد "اتسمت القرون الوسطى بفعالية الأموات وحضورهم بين الأحياء بشكل ملفت للنظر"[٩].

شكلت كرامة الأولياء متنفسا سيكولوجيا للعوام[١٠]، والتي تظل مرتبطة "بالحياة اليومية للناس الذين عاشوا بينهم"[١١]، فيتم اللجوء إليهم في حالة الضيق والخطر، إما عن طريق ذكر اسمهم، أو زيارة قبورهم، أو لمس قماش، أو لباس حزام كان يخص أحدهم في حياته، وهو ما يعني أن الآثار الشخصية للقديسين اليهود تبقى ذات قوة علاجية حتى بعد مماتهم[١٢]. كما كانت لهم القدرة على استجلاب المطر حسب المتخيل[١٣] اليهودي، ودفع ما يمكن أن يطال الإنسان من مخاطر. وقد ارتبط هذا الأمر بتاريخ بني إسرائيل منذ القدم، حيث كان يتم الاستعانة بدعاء بعض الأولياء للاستسقاء[١٤]. كما جرى كذلك زيارة مزارات بعض الأولياء طلبا للغيث، كما هو الحال مع الربي إسحاق هاكوهين "مول الميلا" بمدينة صفرو، والذي خص في حياته بإجراء الختان، وذلك بنشر خرقة مبللة بدم الختان على شاهد قبره مع قراءة المزامير والأدعية استنزالا للمطر[١٥].

لقد خلق يهود المغرب، زمن الدراسة، العديد من الرموز بحثًا عما يقيهم من "شر الوجود في الطبيعة والمجتمع"[١٦]. فإنسان الكوارث مستهلكًا بامتياز لعالم الخرافة والسحر[١٧]، مستعينا في ذلك بالعديد من الحيوانات التي وظفها في طقوسه الاستمطارية لاستدرار عطف السماء. فقد علل يهود المغرب الجفاف بتلك الأرواح الشريرة التي تسكن بعض أنواع النبات والحيوان، لذلك اتخذوا من تلك المشتبه في احتضانها لأسباب منع الغيث قربانًا يقدم للإله الغاضب بعد إراقة

دمها أو قذفها في النار، حتى يتم التخلص من تلك الأرواح الشريرة الكامنة فيها والمانعة للمطر[١٨]. وفي ذلك الجو الاحتفالي تشرئب أعناق المشاركين فيه إلى السماء ترقبًا للمطر. واعتبر البقر من أهم الحيوانات التي وظفت لهذه الغاية. فحسب الاعتقاد الذي كان سائدًا فإن لهذه الحيوان قوة تتحكم في نزول المطر، وتعود هذه الممارسات إلى" مخلفات عبادة الثور، وما يرمز إليه من الخصب والإرواء"[١٩]. كما كان يتم اللجوء إلى طرق تنجيمية أخرى لاستجلاء أحوال القادم من الأيام وما تخفيه من جدب أو خصب، خاصة خط الرمل الذي ساد بالمناطق الصحراوية، إلى جانب أخذ عظمة كتف الشاه وإمعان النظر فيها وقراءة ما تحتويه من الرموز لمعرفة ما سيحدث في المستقبل[٢٠].

الواضح أن الرؤى والأحلام أضحت، كذلك، آلية يتم الارتكان إليها لرصد أحوال المناخ، وبلسما يخفف من الآثار النفسية التي تخلفها السنوات العجاف في النفوس، فقد اتُخذ من النوم وسيلة لاستجلاء أسرار المناخ، ومعرفة ما ستكون عليه السنة من جذب أو خصب، وهذا كان حال أهل غمارة. يقول البكري: " ومن أعاجيب بلد غمارة أن عندهم قوما يعرفون بالرقادة (...) يغشى على الرجل منهم يومين وثلاثة فلا يتحرك ولا يستيقظ ولو بلغ به الأقصى مبلغ من الأذى ولو قطع قطعًا، فإذا كان بعد ثلاثة من عشيته استيقظ كالسكران (...) فإذا أصبح في اليوم الثاني أتى بعجائب مما يكون في ذلك العام من خصب أو جدب أو حرب أو غير ذلك وهذا أمر مستفيض لا يخفى"[٢١].

أضحت تلك الممارسات جزءا من المتخيل الجمعي لساكنة غمارة، حتى عُد من خالف أو شكك في نجاعة هذه الطقوس، نذير شؤم عند أهل غمارة، يتم التطير منه ويقدف بالجهل وقصور الفكر، حيث "تتراءى كارثة الجفاف في المعتقدات الشعبية من خلال منظور ديني ينزع عنها صبغتها الطبيعية، ويجعل منها ظاهرة غيبية. فقحط الموسم الفلاحي، وتسلط الجراد وانتشار الجوع الدي يسوق الناس بالجملة إلى القبر، كل هذا يبرز في مخيلة المعاصرين بصورة عقاب من السماء ينزل بسبب خطايا مجهولة"[٢٢]، وهو ما يعكس نظرة العامة إلى الكوارث الطبيعية، والتفسير الديني لتلك الظواهر، أمام غياب الفكر النقدي، وغياب آلية التحليل العلمي، وهو ما يجعل من تلك الظواهر ردة فعل إلهية مباشرة على خطايا وزلات بشرية، استحقت معها العقاب الإلهي.

ساهم الموروث الديني والاجتماعي في بلورة ذهنيات متعددة المناحي[٢٣]، حيث ارتبطت الكوارث الطبيعية، بكثرة الذنوب وعدم الالتزام بالضوابط التي أقرتها أسفار التوراة. لذلك كان لابد من التكفير عن تلك الآثام، وذلك بالاستعانة بالأطفال، رمز النقاء من الذنوب، إلى جانب طلبة التلمود الذين كانوا يجلسون أمام أسفار التوراة، وهم في حالة من الخجل من طلب العفو وكشف ما حل بهم من كارثة، لكونهم لم يلتزموا بالضوابط التي أقرتها التوراة لذلك يتشفعون بهؤلاء الأطفال[٢٤]. خاصة أمام اقتناعهم بأن ما أصابهم مؤشر على برودة علاقتهم بخالقهم[٢٥].

لجأ يهود المغرب إبان الأزمات، إلى طلب الصفح من بعضهم البعض بصوت مرتفع، وإرجاع ما يمكن أن يكون قد نهبه أحدهم من الآخر، وذلك بالقول" أنا نهبت فلانا كذا وكذا"[٢٦]، لكن أغلب الذين اعترفوا كانوا من الفقراء. ومن عاداتهم كذلك، عند انحباس المطر، صيام يوم الخميس، لكن "كثرة الذنوب كانت تحول دون الاستجابة"[٢٧]، وهو ما يزيد من أحزانهم. والتفسير الذي غدا من الثوابت في مثل هذه الحالات هو كثرة الذنوب وسوء الأدب مع الله الذي يفتح أبواب الشدائد، وهو ما سمح بنشوء "شعور راسخ بأنه لا يمكن حدوث انفراج إلا بإرضاء الرب الغاضب"[٢٨]، بوساطة الأولياء نظرا لمسؤولياتهم فيما قد يلحق من كوارث، بفضل دعواتهم التي يمكن تتسبب في "الخسف والزلزلة والطوفان والصواعق"[٢٩].

قدس اليهود والمسلمون، نفس الأولياء، وقاموا بنفس طقوس الزيارة في بعض الأوقات[٣٠]. كما كان اليهود يقيمون صلاة الاستسقاء (يقونه هكشيم) طلبا للغيث، وذلك تزامنا مع صلاة المسلمين[٣١]. لقد كانت الأزمة بشكل عام مناسبة سانحة لتعزيز مكانة الأولياء ودورهم المحوري داخل نسيج المجتمع، لذلك كان يتم الحرص على تبجيلهم. فقد ترسخ في ذهنية العامة أن الولي بإمكانه أن يدفع ما لحق بها من ضر، خاصة ما ارتبط بالنشاط الفلاحي الذي شكل قطب الرحى ضمن عجلة

الاقتصاد[٣٢]. كما ارتد العديد من اليهود بالمغرب، زمن الكوارث الطبيعية، نحو الطور "الوحشي" البدائي، حيث يصبح الإنسان مفترسا للنبات ومستهلكا للحشرات التي كانت تأنفها نفسه في الأيام العادية[٣٣]. ورغم تحريم الشريعة اليهودية، أكل الجراد[٣٤]، إلا أن اليهود المغاربة لم يتوانوا عن أكله خاصة في فترات الجوع، الناتج عن الجفاف، حيث يجدون فيه غذاء شهيا[٣٥]. وهو ما يعكس تسامح الحاخامات اليهود بالمغرب مع تناول بعض الأطعمة التي تندرج في خانة المحظور في الأيام الطبيعية، وهو أمر فرضته الظروف الطبيعية الصعبة، تماشيًا مع مبدأ الضرورات تبيح المحظورات، حيث" يصبح بعض المحرم من الطعام حلالا، في فترات المجاعة وارتفاع الأسعار المفرط (...) مع الرجوع إلى مقتضيات الشريعة عندما تتحسن الأحوال الاقتصادية"[٣٦].

وأمام انسداد الأفق، خاصةً أمام تفاقم حدة الجوع، وبعد أن تكون المجاعة قد نشبت مخالبها في أجساد الجوعى، لا يجد البعض من أصحاب تلك الأجساد المنهكة إلا خيار الانتحار موئلا للهروب من بؤس الواقع [٣٧]. وإن كنا لا نتوفر على نسب قد تسعف أكثر في الإحاطة بهذا الموضوع، أي الانتحار بدافع الجوع، إلا أننا نرشح أن العدد ظل محدودا، لعوامل مرتبطة بحب البقاء من جهة، ولوجود كوابح ثقافية تتعارض مع فعل الانتحار من جهة ثانية. لكن وما هو مؤكد، أنه ليس "هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الإنسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإن الفرد إذا استبد به الجوع لا يتورع عن القيام بأعمال شاذة إذ يتغير سلوكه من أساسه كما يحدث لأي حيوان نال منه الجوع"[٣٨].

يتضح، أن المتخيل ينتعش في حالة الرغبة إلى التطلع نحو مجالات غير قابلة للإدراك، وفي حالة الخوف من المجاهل، وأمام هول الكوارث الطبيعية، والقهر، والاستبداد الاجتماعي، والاقتصادي. وهو ما يؤدي إلى الهروب أو الرفض عبر بعض الروايات المثالية[٣٩]. إنه إذن بمثابة آلية دفاعية ضد الطبيعة يتم توسلها في حالة الوهن بهدف تحقيق توازن نفسي واجتماعي[٤٠]. كما يتسم المتخيل الاجتماعي، من خلال مظاهره المختلفة، بطابع الدين والسحر اللذين يتألفان في الشعائر والطقوس ليعطيا لهذا المتخيل أبعادًا شمولية وخصائص محلية[٤١].

ثانيًا: الجفاف وانبعاث فكرة المخلص

تحكمت ظروف العيش ونمط الاقتصاد السائد خلال العصر الوسيط، المرتكز على الزراعة، في بروز "المعتقدات المرتبطة بالطبيعة"[٤٢]، خاصةً الجفاف، والذي وإن كان أحد أشد الكوارث الطبيعية وطأة على إنسان المرحلة المدروسة، بقدر ما أفرز فكرًا استسلاميًا ينتظر المخلص الذي تمثل في فكرة انتظار المنقذ "المسياني"[٤٣]. والتي قالت بنهاية العالم، وهو ما خلق جوا من الترقب في صفوف اليهود بالمغرب والأندلس على حد سواء.[٤٤]

كانت الكوارث الطبيعية مناسبة تثير الاعتقاد في عودة المسيح المنقذ، والذي كان يتم استدعاؤه في الفترات والمنعطفات التاريخية الحرجة من جفاف ومجاعات وأوبئة وأزمات سياسية. وقد ارتبطت فكرة المسيح[٤٥] المنتظر باليهود أيما ارتباط، لأنه "لم تشغل قضية من القضايا بال اليهود كقضية المسيح المنتظر (الذي) سيعود لتطهير العالم من الظلم والبؤس ومن أجل سيادة السلام والعدل"[٤٦]، حيث تطفو فكرة المسيح المنتظر إلى سطح الوجود كلما ساد الظلم والخوف والبؤس.

ولم تكن فكرة المهدوية[٤٧] مرتبطة باليهود فقط، بل شكلت وماتزال خاصية ملازمة للمتخيل الإسلامي كذلك. فالمسلمون يتشوفون إلى المنقذ الذي يبعثه الله تعالى ليجدد للناس دينهم ويخرجهم من الأزمة[٤٨]. فأصحاب الديانتين يشتركون حد التماهي في هذا الأمر، فقد سيطر "وسواس" المهدوية على المغاربة، فالتشوف إلى منقذ من صميم اعتقادهم لحظة حلول الأزمة المرتبطة بالأقوات والمهددة للوجود. لذلك تم اللجوء إلى ممارسات تنجيمية وأخرى سحرية وميثولوجية. هذه الممارسات لم تسلم من سهام النقد من طرف موسى بن ميمون، فقد اعتبر تلك الممارسات سببا وراء اندحار اليهود وضياعهم في العالم، لأن ذلك يتعارض مع الوصية الثانية من الوصايا العشرة المنزلة على موسى عليه السلام. كما اتهم بن ميمون المتعاطين

للتنجيم بالحمق والتفاهة وبكون ادعاءاتهم لا قيمة لها بالقول: "اعلموا، يا سادتي، أن كل واحد من المواضيع المتعلقة بعلم التنجيم الشرعي، والتي تتعلق بأن أمرا ما سيحصل بطريقة محددة، وأن الكوكب الذي يولد المرء تحته، يحدد له ما سيكون عليه وما سيقع له بطريقة معينة دون أخرى، كل هذه الادعاءات بلاهة"[٤٩]. إلا أن ذلك لم يكن حائلا دون التعاطي لتلك الممارسات من طرف اليهود.

ويُعَدّ موشي الدرعي من أولئك اليهود الذين روجوا لفكرة ظهور المسيح المخلص سنة ٥٠٠ه/ ١١٠٧م[٥٠]، وهو ما جعل بعض اليهود يعتقدون في كون المهدي ابن تومرت هو المسيح الذي بشر به المتنبئ[٥١]. وأمام النبوءات المتتالية بقرب مجيء المخلص ونهاية العالم، أقدم العديد من اليهود على بيع ممتلكاتهم للمسلمين بأثمنة زهيدة، وهو ما عرض عدد منهم للإفلاس، خاصةً أمام عدم تحقق تلك النبوءات المبشرة بظهور "المشيخ" (מָשִׁיחַ). لكن إذا علمنا العلاقة التي تجمع اليهود بالمال، فإننا نشك في كونهم فرطوا في ممتلكاتهم تحت طائلة ظهور المسيح.

شكل القرن (٦هـ/ ١٢م) منعرجًا نحو ظهور عدد من المتنبئين في المغرب والأندلس[٥٢]، فقد ظهر عدد من مدعي المهدوية من اليهود بالأندلس، ففي قرطبة لوحدها، ادعى رجل أنه المسيح المخلص في الفترة مابين (١١٠٢م -١١٠٧م)، وبعد فشله في ادعاءاته، ادعى رجل آخر من نفس المدينة سنة ١١١٧م أنه المسيح، لكن هذه المرة لم يتم الاستسهال معه من طرف السلطة الحاكمة، حيث كان الإعدام مصيره هو من اتبعه. ولم يكن مصير يهودي آخر ادعى نفس الادعاءات أفضل ممن سبقه، بل كان مصيره " تراجيديًا"[٥٣]. ولم تنته سلسلة مدعي المهدوية عند هذا الحد، بل ظهر خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي مدع يهودي آخر للمهدوية وهو ابراهام أبو العافية الأندلسي (ت. ٦٩١ه/١٢٩١)[٥٤]. إن تنامي ظاهرة المهدوية، خلال القرن الثاني عشر للميلاد على وجه التحديد يدفع إلى التساؤل عن العوامل المفسرة لاقتران هذه الظاهرة بشكل خاص بهذه الفترة التاريخية بالذات.

على الرغم من أن اليهود آمنوا دائمًا بفكرة المخلص، إلا أن التصوف اليهودي (القبالة) الذي وجد طريقه إلى المغرب خلال القرن الثاني عشر للميلاد[٥٥]، شكل إحدى الدعامات الرئيسية التي روجت لفكرة المهدوية، فقد كان دائم التبشير بالمنقذ المخلص أو "المشيخ المنتظر"[٥٦]، "وقد أحدث الصوفية تغيرات ملموسة في الأسس النظرية والعملية للمهدوية مسايرة لتحولات الحقل السياسي والاجتماعي"[٥٧] وهو ما سمح بظهور عدد من المتنبئين، أمثال موشي الدرعي" المتنبئ" الذي ظهر في بداية المائة الثانية عشر، وأبرهام أبو العافية (الأندلسي) الذي ظهر في العقد السابع من المائة الثانية عشر. كما تحدثت الكثير من مؤلفات يهود المغرب عن ظاهرة "المخلص المنتظر" كما هو الحال مع "إسحاق ابرفنيل" و"ابراهام اللاوي"[٥٨].

لقد اقترنت ظاهرة المهدوية والمسيحانية كذلك بادعاءات محمد بن تومرت، مهدي الموحدين، الذي رفع شعار المهدوية أواخر عمر الدولة المرابطية[٥٩]، وقبله مؤسس الحركة المرابطية عبد الله ابن ياسين الذي نسبت إليه العامة قدرته على تفجير الماء في الصحراء القاحلة[٦٠]. فنجاح ابن تومرت في استقطاب عدد من الاتباع الذين آمنوا بما جاء به، جعل الكثير من اليهود يروجون لقرب ظهور المسيح. وهو ما جعل "سيمون ليفي" (simon levy) يربط بين مهدوية اليهود ومهدوية ابن تومرت، فقد ادعى البعض أن المهدي بن تومرت هو المشيخ المنقذ الذي كان يبشر به موشي الدرعي من أعلى منابر بيعات فاس، حتى قبل ظهور حركة ابن تومرت[٦١].

إن الانتظارات المرتبطة بإحدى الديانات السماوية الثلاث، يكون لها بالغ الآثار على باقي الديانات الأخرى، خاصة وأن الديانات الثلاث ترى في الإسلام خاتم الأديان، وهو ما يؤشر على قرب قيام الساعة[٦٢]. ويبدو أن سنة (٥٠٠ ه/ ١١٠٧م) كانت مفعمة بالانتظارات الحدثانية بالنسبة لليهود، ومن أولئك اليهود الذين درسوا أشراط ساعة الخلاص نجد اليهودي "ابراهام بارحيا" (م. ١١٣٦) من خلال مؤلفه "لفيفة اللفائف" والذي كان يعتقد فيه أن المخلص سيظهر بعد ٥٠٠ سنة من هجرة الرسول. وقد ارتبطت تلك الأفكار المبشرة

بالخلاص المشيخي بحملة الجور والتضييق التي طالت اليهود من طرف المسلمين والمسيحيين على حد سواء[٦٣].

والراجح كذلك، أن المنجمين والسحرة كانت لهم اليد الطولى في الترويج لمثل هذه الأفكار، والتي كانت تتلقفها العامة دون أن تضعها في ميزان النقد والتمحيص، حتى أنه بلغ بهم الأمر إلى الترويج لفكرة خطيرة، مؤداها فناء العالم سنة (٥٨٢هـ/١١٨٦م)[٦٤]. وهو ما أحدث حالة من الرعب في صفوف المجتمع. وفي معرض رسالته إلى يهود أهل اليمن، وهي الرسالة التي بعث بنسخة منها إلى يهود فاس، حدر موسى بن ميمون من المسيحاء مدعي النبوة، الذين يظهرون في الفترات العصيبة من تاريخ اليهود. كما تضمنت الرسالة تحريما للتنجيم وإدانة الاعتقاد الباطل بتأثير النجوم على الإنسان[٦٥]. وبالمقابل، وضح موسى بن ميمون علامات المسيح المخلص وعلامات زمانه، محذرًا منه خشية أن يفسد الجماعات اليهودية. ومما تضمنته الرسالة: " كتب لي إخواننا باليمن رسالة طويلة أخبروني فيها بأقواله (...) وبالبدع التي ابتدعها في الصلوات. وأخبروني بأنهم شاهدوا بعض معجزاته (...) وأنني أستنتج من كل ذلك أن هذا الرجل المسكين، جاهل (...) لا حكمة لديه البتة. وكل ما شوهد من فعله أو سمع من قوله باطل وكذب، وإني أخاف على أولئك اليهود"[٦٦]. لقد ظل وما يزال هاجس انتظار المخلص جليًا ضمن عدد من ممارسات اليهود الاحتفالية والطقوسية وبخاصة ضمن عيد "ميمونة" كما أشار إلى ذلك حاييم الزعفراني[٦٧].

خَاتِمَةٌ

عملنا من خلال المقال الراهن، على تتبع بعض الممارسات التي لجأ إليها يهود المغرب خلال العصر الوسيط لمواجهة أزمة الجفاف، نظرا لتبعاتها وما ينجم عنها من غلاء في الأسعار وأسقام في الأبدان. وقد خلصنا إلى أن الهروب والهجرة شكلتا إحدى المداخل الأساسية التي قصدها يهود المغرب، متخذة تلك الهجرة ألوانًا متعددة؛ هجرة إلى الرب الغاضب، بالدعاء وطلب المغفرة والصفح عم اقترفته أيديهم من ذنوب وآثام والتي استحقوا معها ذلك الغضب. هجرة إلى مزارات الربيين، التي وجدوا فيها موئلاً للتخفيف من وقع ما أصابهم. كما كانت الهجرة من منطقة إلى أخرى إحدى آليات المواجهة كذلك، خاصةً وأن استعار نار أزمة الجفاف وغيرها من الكوارث والجوائح يعقبها تضييق على اليهود من طرف المسلمين. ورغم أن الجفاف أضحى أمرًا مألوفًا عند المغاربة، إلا أن الآليات والتقنيات التي تم التوصل إليها زمن الدراسة لم تكن كفيلة بمواجهته بطرائق علمية، وهو ما كان يندر بأيام صعبة، حيث يصبح الجوع وشبح الموت أقرب إلى الإنسان من أي وقت آخر، لذلك، ينتصب المتخيل اليهودي مخترقًا المألوف ومتجاوزًا حدود الذهن باحثًا عن الخلاص. هذا الأخير حمل لواءه العديد من مدعي المهداوية والمسيحانية، لكن الراجح أنا هذه الادعاءات سرعان ما تخبو جذوتها بانقشاع غمامة الواقع المأزوم، بما كان يحمله من تناقضات اجتماعية واقتصادية واضطرابات سياسية.

الإحالات المرجعية:

(١) الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، قضايا تاريخية**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص٢٩.

(٢) محمد سيد كامل محمد، "الكوارث الطبيعية بالغرب الإسلامي وأثرها على الصحة والبيئة (ق٦-٥ه/ق١٢-١٣م)"، ضمن: **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس قضايا وإشكاليات، الجزء الأول: قضايا في التاريخ الاقتصادي، أوراق الندوة التكريمية المهداة للأستاذ المؤرخ إبراهيم القادري بوتشيش**، تقديم وتنسيق الدكتور محمد الشريف، الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص. ٢٥٠.

(٣) اختلف العلماء المسلمون في مسألة خروج اليهود مع المسلمين للاستسقاء، أو خروجهم لوحدهم. وقد برر الذين أفتوا بخروجهم مع المسلمين، بكون اليهود إذا ما خرجوا لوحدهم ينزل المطر لأنهم يحملون عظم أحد الأنبياء. أبي عيسى سيدي المهدي الوزاني (المتوفى عام ١٣٤٢ه)، **النوازل الجديدة الكبرى فيما لأهل فاس وغيرهم من البدو والقرى المسماة بالمعيار الجامع المعرب عن فتاوى المتأخرين من علماء المغرب**، الجزء١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ص.٥٧٢ -٥٧١.

(4) Georges Vajda, **un recueil de textes historiques judéo-Marocains**, collection Hespéris, N° XII, Larose, paris, 1951, pp. 77 – 79.

(٥) أخبار عائلة ابن دنان، **التواريخ أو تاريخ فاس**، ترجمة عبد العزيز شهبر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية تطوان، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص.٣٧.

(٦) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها على سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس ق ٦-٨ هـ/ ١٢-١٤م**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى آب (أغسطس)، ٢٠٠٨، ص. ١٣٦.

(٧) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية: برلين- السوربون- استراسبورغ، من المنهج إلى التناهج**، دار الأمان الرباط، ٢٠١٩، ص. ١٠٧.

(٨) عطا علي محمد شحاتة رية، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين**، دار الكلمة للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا-دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، ص ٩٨.

(٩) محمد ابرهموش،" الاستغاثة بالموتى في المغرب وأوروبا خلال الأزمات: الطاعون الأسود نموذجا"، ضمن: **المغرب والمجال المتوسطي: تاريخ مشترك وتفاعل مستمر**، الرباط، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ٢٠١٩، ص. ١٤٨.

(١٠) محمد حبيدة، **المدارس التاريخية برلين-السربون-استراسبورغ**، م س، ص. ١٠٧.

(١١) محمد ابرهموش،" الاستغاثة بالموتى"، **م س**، ص. ١٤٧.

(12) Issachar ben-ami, **culte des saints et pèlerinages judéo-musulmans au Maroc**, édition Maisonneuve et Larose, paris, 1990, p. 50-115.

(١٣) يعتبر المتخيل الفضاء المُشَكل من الكيفيات المتعددة التي يهب بها الإنسان المعنى للأشياء قصد تملكها دلاليا. إنه المجال الذي يتعالى به وفيه عن طبيعته الحسية وكذا عن حسية ما يحيط به، نحو التصور، والتمثل، والترميز، والحكي. إنه جملة من التمثلات التي تفيض على الحد الذي وضعته الملاحظات الناتجة عن التجارب، مما يعني أن لكل ثقافة متخيلها. فتاريخ المتخيل هو إذن تعميق للتاريخ، ودراسة خيال مجتمع هو الذهاب إلى أعماق ضميره بهدف الكشف عن تطوره التاريخي. كما اعتبر المتخيل محركًا وموجهًا للتاريخ، فبدونه يبقى هذا التاريخ مبتورا. وبذلك تكون البنية الموجهة لهذا التاريخ ليس البنية التحتية/ الاقتصادية، بل المتخيل هو من يقوم بذلك. راجع: نور الدين الزاهي، **المقدس والمجتمع**، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ٢٠١١، ص. ٩. إملين باتالجين، "تاريخ المتخيل"، ضمن: **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، مراجعة عبد الحميد هنية، المنظمة العربية للترجمة، بيروت الطبعة الأولى٢٠٠٧، ص. ٤٨١. بسام الجمل، المتخيل الديني: المناهج والغايات، **https://www.mominoun.com**، بتاريخ: ٢٨-٠٨-٢٠٢٢.

Jaques legooff, **L'imaginaire médiéval**, **Essais**, Gallimard, Paris, 1985, P. 7-9

(١٤) محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي**، ج٢، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٩٩٤، ص. ٤٠٥.

(١٥) حاييم الزعفراني، **يهود المغرب والاندلس، ج٢، م س**، ص. ٤٢٧.

(١٦) محمد ابرهموش، "الاستغاثة بالموتى"، **م س**، ص. ١٤٥.

(١٧) إبراهيم القادري بوتشيش، "كتابة التاريخ الاجتماعي والذهني في ضوء تجربة وحدة التكوين والبحث: التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي"، **مجلة أسطور**، العدد ١٩، ٢٠٢٣، ص. ٢٣٢.

(١٨) ارتبط البقر بنزول المطر عند العديد من الشعوب، خاصة تلك التي توجد في المناطق الصحراوية. وكان يتم ربط الحطب، الذي يكون أساسا من شجر السلع والعشر، بأذناب البقر، ثم يصعدون به إلى جبل بعد أن يتم إشعال النار في ذلك الحطب. وكانوا يرون ذلك من أسباب السقيا. ويعللون ذلك بكون النار تشير إلى البرق، وهذا الأخير يجلب المطر. محمد بن عبد العزيز بن عبد الله، **الماء في الفكر الإسلامي والأدب العربي، ج٢**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب، ١٩٩٤، ص. ٣٩٤-403-٤٠٦.

(١٩) **نفسه**، ص. ٣٩٤.

(٢٠) إبراهيم القادري بوتشيش، **حلقات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي**، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص. ١١١.

(٢١) أبو عبيد الله البكري (المتوفى سنة ٤٨٧هـ)، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، مكتبة المثنى بغداد، دون سنة النشر، ص. ١٠١-١٠٢.

(٢٢) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص. ٣٤٧.

(٢٣) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية، م س**، ص. ١٠.

(٢٤) أخبار عائلة ابن دنان، **التواريخ أو تاريخ فاس، م س**، ص. ٢٩-١٨.

(٢٥) محمد ابرهموش، "المخيال المغربي قبل الأزمنة الحديثة افقا للبحث التاريخي"، ضمن المغرب وافريقيا: **دراسات تاريخية ومنهجية اعمال مهداة لروح الأستاذ الحسين بولقطيب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الجديدة، الطبعة الأولى٢٠٢٣، ص. ٤٥.

(٢٦) أخبار عائلة ابن دنان، **التواريخ، م س**، ص. ٣٣.

(٢٧) **نفسه**، ص. ٣٢- ٣٣-٣٤.

(٢٨) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س**، ص. ٣٤٩. ص١٤٨.

(٢٩) الميلودي شغموم، **كان ما سيكون، أسس المتخيل بحث في لاواعي الحداثة**، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص. ٥٩.

(30) Haïm Zafrani, **deux mille ans de vie juif au Maroc**, Maisonneuve et Larose, paris, 1983, p. 118.

(٣١) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س**، ص. ٣٥١.

(٣٢) أبو يوسف يعقوب ين يحيى بن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق، أحمد توفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م، ص. ٢٥٣.

(٣٣) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية، م س**، ص. ٨.

(٣٤) رغم أن الجراد شكل أحد الوجبات التي فرضت على مائدة المغاربة زمن الجوع، إلا أن هذه الحشرة كانت مسؤولة كذلك عن العديد من المجاعات التي عرفها المغرب، فحيثما "**مر الجراد ترك مجاعة كبيرة**" خاصة في المناطق الجنوبية. حسن الوزان، **وصف إفريقيا، ج٢**، ترجمه عن الفرنسية، محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص. ٢٧٨-٢٧٩.

(٣٥) محمد أمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات، م س**، ص. ٣٥٨.

(٣٦) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، الجزء الثاني**، ترجمة أحمد شحلان، مرسم الرباط، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، ص. ٥١٦.

(٣٧) عبد الاله بلمليح، "الانتحار في تاريخ المغرب"، ضمن: **الوفيات والموت مقاربات تاريخية وانتروبولوجية**، أعمال مهداة إلى الأستاذ عثمان بناني ومحمد العربي المساري وآخرون، جامعة محمد الخامس الرباط، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، ٢٠١٧، ص. ٥٨.

(٣٨) كاسترو، **جغرافية الجوع**، ترجمة زاكي الراشدي، دار الهلال، ص. ١٥٨. نقلا عن محمد أمين البزاز، **المجاعات والأوبئة، م س**، ص.٣٥٩.

(٣٩) إملين باتالجين، "تاريخ المتخيل"، **م س**، ص. ٤٨.

(٤٠) جلبير دوران، **الخيال الرمزي**، ترجمة علي المصري، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٤، ص ١٤.

(٤١) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، ج٢**، ترجمة أحمد شحلان، منشورات مرسم الرباط، ٢٠٠٠، ص٤١٧.

(٤٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع- الذهنيات، الأولياء**، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص. ١٠٩.

(٤٣) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب**، ج٢، ترجمة أحمد شحلان، منشورات مرسم الرباط، ٢٠٠٠، ص. ٥٢٢.

(٤٤) مرسيدس كارسيا ارينال، " التشوف اليهودي زمن المهدوية" ضمن: **السلطة والفقهاء والمجتمع في تاريخ المغرب: الائتلاف والاختلاف**، تعريب: ذ محمد الغرايب، ذ عبد العزيز بالفايدة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية القنيطرة، مطبعة الرباط نت، ٢٠١٣، ص. ٤٣٥.

(٤٥) لا تعني هنا لفظة "المسيح" ما يدل عليه الأمر عند النصارى، ولكنها تعني مسيح اليهود خاصة، وهو الذي يطلق عليه بالعبرية "مَشِّيحَ" (מָשִׁיחַ). أحمد شحلان، **اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة قراءة في الموروث والأحداث**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص. ١٢٣.

(٤٦) فالح مهدي، **البحث عن منقذ دراسة مقارنة بين ثماني ديانات**، ط١، دار بن رشد، ١٩٨١، ص. ١١٨.

(٤٧) تتجلى النزعة المهدوية في التشوف لمستقبل بشري سعيد، يعم فيه العدل والكرامة ويتحقق فيه الخلاص على يد المنقذ المخلص. مراد جدي، "النزعة المهدوية والتصوف بشمال المغرب: دراسة في تاريخ المتخيل الديني"، ضمن: **قضايا في البحث التاريخي: مؤلفون ونصوص – متلازمة الدين والسياسة والاقتصاد**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزدوج ١٣-١٤/٢٠١٦-٢٠١٧، ص. ١٠٣

(٤٨) محمد ستيتو، **الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن ١٦م، م س**، ص. ٢٨٤.

(٤٩) عبد السميع البجيدي، "رسالة في علم التنجيم"، **مجلة ضفاف للعلوم الإنسانية، العدد ٢**، ٢٠٢٣، ص. ٩٤-٩٨.

(٥٠) مرسيدس كارسيا ارينال،" التشوف اليهودي زمن المهدوية"، ص. ٤٣٩,٤٤٠.

(٥١) محمد المغراوي، **الموحدون وأزمات المجتمع**، جذور للنشر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص.١٢٦.

(٥٢) رضوان رابحي، **الموت والصلات الرمزية بين الأحياء والموتى بالمغرب والأندلس إبان العصر الوسيط**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٢٣، ص. ٢٨٩.

(٥٣) نفسه، ص. ٢٩٠.

(٥٤) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى رياح الفرقة قراءة في الموروث والأحداث**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩، ص. ١٢٥.

(٥٥) كان هناك تفاعل ثقافي بين المسلمين واليهود خلال العصر الوسيط مما أدى إلى تبادل الافكار والمعتقدات، فقد عرف القرن الثاني عشر للميلاد ترجمة أعمال الغزالي إلى العبرية، ومنها ستة على الأقل من أعماله الكبرى، فقد كان اليهود يكنون احتراما وتقديرا كبيرين للغزالي، كما أن بعض أفكاره لم تحفظ إلا باللغة العبرية.

Haïm Zafarani, **Kabale vie mystique et magie judaïsme d'occident musulman**, éditions Maisonneuve et Larose paris (V), 1986, p.28-29.

(٥٦) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة، م س**، ص.١٢٥.

(٥٧) مراد جدي، "النزعة المهدوية والتصوف بشمال المغرب"، **م س**، ص. ١٠٣.

(٥٨) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة، م س**، ص١٢٥.

(٥٩) محمد ستيتو، **الكوارث الطبيعية، م س**، ص. ٢٨٤.

(٦٠) بوتشيش، **المغرب والأندلس في عصر المرابطين، م س**، ص. ١١١.

(٦١) رابحي رضوان، **م س**، ص، ٢٩٠.

(٦٢) مرسيدس كارسيا ارينال، " التشوف اليهودي زمن المهدوية"، **م س**، ص. ٤٣٥.

(٦٣) **نفسه**، ص. ٤٣٧.

(٦٤) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية، م س**، ص. ١٣٢.

(٦٥) حاييم الزعفراني، **أخلاق وتصوف اليهودية على أرض الإسلام، م س**، ص. ٨٦-٨٧.

(٦٦) عبد السميع البجيدي، "رسالة في التنجيم"، **مجلة ضفاف للعلوم الإنسانية**، المجلد ٩، العدد ٢، ٢٠٢٣، ص. ١٠٥.

(٦٧) حاييم الزعفراني، **يهود الأندلس والمغرب، م س**، ص. ٥٣٨.